

## الخيار الديمقراطي في مواجهة السلوك العنفي...؟!.

نوري بريمو

جريدة الصباح الجديد\*

تجربة العالم المتمدّن أثبتت بجلاء أنّ التعالي على الآخرين وإقصائهم والشطب عليهم والتهرب من محاورتهم وإعتماد الأشكال العنفية في حل المُختلفات العالقة و...الخ، هو مسلك لاعقلاني يسيئ إلى مبدأ التعايش المشترك بين الشعوب والأمم المتجاورة ، لا بل إنّ هكذا جنوح عن القوانين الدنيوية العادلة والشرائع السماوية السمحة يعيد بنا إلى الأذهان تلك التقاليد اللإنسانية التي كانت سائدة في عصر العبودية الذي عفى عليه الدهر وإندثر في بقاع كثيرة من معمورتنا بإستثناء مشرقنا الذي لا يزال يغرق بغالب بلدانه في غياهب الجهالة المعرفية والمظالم السلطوية.

ولمّا كان إنساننا الشرقي سواءً أكان عربياً أم كردياً أم أعجمياً أم تركياً أم غير ذلك...، يحمل — دون حمده — في مكنونه الداخلي كموناً متراكماً لهلوثة شمولية يمتد عمرها إلى أزمان بعيدة، فإنّه بطبائعه تلك يُعتبر حاملاً بالوراثة لعراقل ذاتية تُضاف إلى أخرى موضوعية داهمتنا ووقفت أسافين عاتقة أمام ديمقراطية مجتمعاتنا التي ترعرعنا في كنفها...، فبرزت مع الأيام عقلية التباهي بالإنتماء للعرق أو الطائفة أو العشيرة الفلانية المتميزة عن مثيلاتها...؟!، وتشكلت دوائر إستبدادية روجت لصوابية أفكار عقائدية معينة دون غيرها...؟!، وتكرّست مفاهيم صنمية أجبرت الناس على الولاء والطاعة العمياء للزعيم المطلق أو الحزب القائد أو الإمارة الإلهية أو الرئيس الأبدى...؟!، ما أدى إلى هيمنة هكذا ركام مرّضي على أدمغة معظم أبناء الشعوب الشرقية الى حدّ نستطيع فيه القول بأنّ الجميع — أقلّياتنا وأكثرّياتنا — مصابون بهذه الآفات الصميمية الناخرة حتى العظم بشكل سلبي مخيف في عقولنا الباطنية المقموعة تحت رحمة سباط حتمية إطاعة العبد المأمور للسيد الأمر الناهي...؟!، حتى أمسى من الصعوبة بمكان وقوف البعض على أخطائهم الذاتية بواقعية وإنصاف، دون اللجوء إلى سلاح تسفيه أو تكفير الآخرين أو النظر إليهم برؤى دونية ليس إلا.

في حين نجد بالمقابل أنّ البلدان الديمقراطية الأكثر إنفراجاً على مكوّناتها المجتمعية قد غدت بمثابة نقاط ضوء متألّقة وتزداد ألقاً من حيث الرقي والتقدم والحضارية، بفضل تعافيتهم من هكذا أمراض وراثية فتاكة، وبفعل اجتنائهم لجذور مختلف فيروسات وخبوط التخلف والفساد والإفساد من نسيج علاقاتهم المدنية التي بات يسودها قدر لا بأس به من الوئام والمحبة والسلم الأهلي المدني على أساس قبول مبدأ التحاوص النسبي في الحقوق والواجبات بين الشركاء وفق ضوابط طوعية ومبدأ المساواة الحقيقية بعيداً عن أية إعتبارات أو خلفيات شاطبة قد تنتقص أو تهين أو تدين حقوقاً أي طرف من أطراف معادلتهم الحياتية لتسود الألفة وسطهم دون أيّة عُدّة أو كراهية أو فتن أو...الخ، وهنا بالضبط يكمن سرّ نجاحهم الملحوظ وتفوقهم اللامحدود بفضل سريان مناخات الرضى عن النفس وعن الآخر والشعور الإيجابي بنيل الحقوق لدى كل جانب بالأساليب الديمقراطية البعيدة كل البعد عن أشكال التنّاحر الدموي والعنف...، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مهم: لماذا لا نحذو حذوهم...؟!، ونسير وفق خطاهم لنتنعم بمزايا الحياة التي ينعمون بها على قمة ذلك الهرم المجتمعي الحضاري الذي رسموا له بأدمغتهم فيما مضى من العصور ثم بنوه أحسن بنيان بسواعدهم وعرقهم ودمائهم التي ضحوا بها خدمة لأنفسهم ولأجيالهم القادمة فيما بعد...؟!، وهل من مسلك أمن آخر سوى اللحاق بهم والسير على هدى خطاهم لنتمكن من العيش وفق منوالهم المتقدم...؟!، وما الضرر من إعتماننا لمبدأ التعامل الديمقراطي فيما بين الإنسان وأخيه الإنسان...؟!، أليست هذه قمة في الحضارية والتخطيط للعيش الحر الكريم...؟!.

الكلّ في بلداننا — أفراد أو جماعات — ينادون في خطاباتهم ومناهجهم وشعاراتهم وخاصة المعلنة منها بالديمقراطية وحقوق الإنسان...، ليس هذا فحسب لا بل يظهرون بأنهم يسعون إليها بحرارة وتوق وفي أحيان كثيرة بالمزاودة على الغير...؟!، لكن المشكلة الكبرى تكمن في أنّ كلّ واحدٍ منهم ينشدها بطريقة الخاصة به

جدا...؟!، أما الخلافات فتبرز وتبدأ فيما بين فرقائنا المختلفين أصلاً، لمجرد التفكير بالجلوس حول طاولة مستديرة للتشاور في ثايا المواضيع المختلف عليها، أو لمجرد بروز أية مبادرة خيرة تهدف إلى إصلاح ذات البين المخيف لدى البعض لكونه قد يؤدي إلى الإنتقاص من مكانتهم أو هيبنتهم أو حصتهم...، في حين لا تبدأ العراقيل الجدية لتدلوّ بدلوا فعلها السلبي المعيق إلا عندما تبدأ المحاولات الصادقة لترجمة ما نصبو إليه عبر إخراجنا من الطور النظري إلى ساحة التطبيق العملي...؟!، والمصيبة الأكبر تكمن في أننا كسياسيين أو متقنين أو كمواطنين عاديين، نبقى بانطباعاتنا وطبائعتنا المتوارثة أناساً جداً إشكاليين بل معقدين ومشاكسين للغاية...؟!، إذ عندما نختلف فيما بيننا في وجهات النظر والرؤى والإقتراحات – و هذا أمر أقل من عادي لدى الآخرين المتقدمين علينا علماً وحضارةً – حينئذ نلجأ بالغريزة وبشكل فوري إلى إتباع أساليب التوتير والعنف والضرب والتقسيم والطرح بدلاً من الهدوء والروية واعتماد لغة التفاهم والمهادنة واحتضان الآخر...؟!، والمشهد المأساوي هذا قد تكرر كثيراً وسطنا، ويبدو أنه سيتكرر في المستقبل، في حين ينبغي أن لا تلجأ كل الأطراف مهما بلغت درجة الخلاف إلى اختيار خيار القطيعة والمصادمات المؤسفة، إلا عندما تكون هنالك نوايا عدوانية لدى البعض منها، و حتى و لو كان الأمر كذلك جدلاً، فإنّ الحدّ من هذه الخلافات أو التقليل من شأنها ينبغي أن يكون هو الهدف المطلوب والمراد تحقيقه على الدوام، وهذا الشيء لا يمكن أن يتم إلا عبر الإلتقاء والحوار والتواصل بشكل سلمي للتوصل إلى توافقات وقواسم مشتركة تخدم وتحقق مصالح وحقوق الكلّ، على أرضية خدمة الصالح الإنساني العام الذي يجب أن لا تعلق عليه أية أغراض أخرى.

=====

\* الصباح الجديد: جريدة يومية سياسية مستقلة تصدر عن دار الصباح الجديد للطباعة والنشر – بغداد – العدد (900) الأحد (15-7-2007)م، الصفحة التاسعة.